

## العقلية البدائية للوسيان ليفي بريل

بقلم: الدكتور قباري محمد إسماعيل

حياته ، ومؤلفاته :

ولد « لوسيان ليفي بريل » في باريس عام ١٨٥٧ ، حيث نال قسطا من التعليم ثم التحق بمدرسة المعلمين العليا L'Ecole Normale عام ١٨٧٦ ، ونال اجازة الفلسفة سنة ١٨٧٩ ، ثم حصل على درجة الدكتوراه في الآداب سنة ١٨٨٤ .

وبعد حصوله على الدكتوراه ، انتقل « ليفي بريل » الى « بور دو Bordeaux » حيث شغل كرسى الأستاذية في « ليسيه لويس الأكبر Louis-Le-Grand » ، وعمل كأستاذ للفلسفة في الأعوام العشرة التي خلت ما بين عامي ١٨٨٥ - ١٨٩٥ ، ثم انتقل « ليفي بريل » بعد ذلك الى السربون واشتغل بهذه الجامعة العتيقة كأستاذ محاضر سنة ١٨٩٥ حيث اتصل بالفلسفة وتاريخها اتصالا وثيقا ، كما ألقى دروسا في تاريخ الفلسفة الحديثة سنة ١٩٠٢ .

نظرا للمكانة العلمية المرموقة التي يشغلها « لوسيان ليفي بريل » ، فإننا نعتبره رائدا من رواد علم الاجتماع في فرنسا ، حيث كان لجهوده العبادة المخلصة أثرها الواضح في شتى الدراسات السوسيولوجية والانثروبولوجية على السواء .

ولما كان « ليفي بريل » عضوا بارزا ، وأستاذا ذاع صيته في مدرسة النشرة السنوية لعلم الاجتماع L'Année Sociologique ، فإننا نود أن نؤكد أهمية دراسة كتابات « ليفي بريل » ودورها الأکید في تشكيل نظريات علم الاجتماع الكلاسيكي وهو علم الاجتماع الفرنسي بالذات .

وإذا نظرنا الى « ليفي بريل » كأحد مشاهير علماء الاجتماع ، فإننا نعهده في الوقت ذاته فيلسوفا عظيما ، نظرا لما خلفه من كتابات ميتافيزيقية ، وأبحاث منطقية . وهو كاتب منتج غزير المادة ، ألف وصنف الكثير من البحوث ، كما نشر وخلف لنا العديد من الدراسات التي ازداد بفضلها ميدان علم الاجتماع ثراء على ثراء .

على تطور الشعور القومي في ألمانيا ، ولذلك كان  
للكتاب عنوانا ثانويا هو « مقال في تطور الشعور  
القومي في ألمانيا »

«Essai sur le développement de la  
conscience nationale en Allemagne ».

ثم أخذت كتابات « ليقي بريل » تترى وتتواتر  
حيث تأخذ طريقها الى المطبعة ، ففي سنة ١٨٩٤  
نشر كتابا عن الفيلسوف الألماني « جاكوبي » ،  
وأعنى به كتابه الذي أصدره باسم « فلسفة  
جاكوبي La Philosophie de Jacobi (١) وفي سنة  
١٨٩٩ نشر كتابه الرائع « تاريخ الفلسفة الحديثة  
في فرنسا » ، ثم ظهر بعد ذلك كتابه التاريخي  
الذي أصدره بعنوان « سقوط أوروبا - الأسباب  
الاقتصادية والسياسية »

«La Conflagration européenne. Les  
causes économiques et politiques ».

وفي سنة ١٩٠٠ نشر « ليقي بريل » كتابه  
المتع « فلسفة أوجست كونت La philosophie  
d'Auguste Comte الذي نقله الى اللغة العربية  
الأستاذ الدكتور السيد بدوي والدكتور محمود  
قاسم . ولم يكتف « ليقي بريل » بنشر هذا الكتاب  
عن أستاذه ورائده « أوجست كونت » ، بل تابعه  
بكتاب آخر أصدره تحت اسم « رسائل غير منشورة  
من جون ستيوارت ميل الى أوجست كونت »

«Lettres inédites de John  
Stuart Mill à August Comte».

(١) هو « فردريك جاكوبي Frédéric Jacobi  
- فيلسوف ألماني ولد في دسلدروف سنة ١٧٤٣ ومات في  
ميونيخ عام ١٨١٩ . ولقد تأثر « جاكوبي » كثيرا بفلسفة  
وكتابات « سبينوزا Spinoza » ، ولذلك  
كانت أشهر الكتب التي أصدرها « جاكوبي » هو كتاب  
« فلسفة سبينوزا Sur La philosophie de Spinoza » .

وفي سنة ١٩٠٥ ارتقى « ليقي بريل » الى  
منصب نائب أستاذ في السربون ، وبعد سنوات  
قليلة حصل على لقب « بروفيسور Professeur »  
سنة ١٩٠٨ . وأخيرا توجت حياته العلمية الحافلة  
بأن انتخب سنة ١٩١٧ عضوا في أكاديمية العلوم  
الأخلاقية .

وليس من شك في أن « ليقي بريل » قد تأثر  
الى حد بعيد بكتابات الفلاسفة في عصره كما  
انفعل أيضا بالجو العلمي والفلسفي الذي عاش فيه  
حيث وقع تحت تأثير المناقشات ، الميتافيزيقية  
التي أثارها « المدرسة الفرنسية الجديدة » ، تلك  
المدرسة التي صدرت بظهور طبقة من فلاسفة  
الحرية من أمثال « رافيسون Ravaisson » و  
« لاشيليه Lachelier » و « اميل  
بوترو Emile Boutroux »

ومن خلال هذا المناخ الأكاديمي الخالص ،  
وبتأثير الكتابات النظرية البحتة ، نشر « ليقي بريل »  
كتابا عن « فكرة المسؤولية  
L'idée de responsabilité »  
سنة ١٨٨٤ حيث استوحى « ليقي بريل » جوهر  
مانشره عن مضمون المسؤولية ، من صدى قراءاته  
الجادة لفلسفة « ايمانويل كانط » .

وأغلب الظن أن « ليقي بريل » قد اتصل  
اتصالا وثيقا بالفلسفة الألمانية ، وبخاصة عند  
كانط Kant وليبنز Leibniz و « جاكوبي  
Jacobi » ، فلقد كانت له كتاباته التي يبدو  
منها بوضوح مدى تأثره بالفكر الألماني وبالقوموية  
الألمانية ، ففي سنة ١٨٩٠ نشر كتابا بعنوان  
« ألمانيا منذ ليبنز Leibniz L'Allemagne depuis  
حيث التفت « ليقي بريل » وارتكزت اهتماماته

بريل» وأصبحت تراثا خالدا في المكتبة الاجتماعية والفلسفية - كتابه الرائع - عن « الوظائف العقلية في المجتمعات الدنيا »

« Les Fonctions Mentales dans les Sociétés Inférieures ».

ولقد صدر هذا الكتاب عام ١٩١٠ ، وهو كتاب رئيسي له دوره في سلسلة كتابات « ليثي بريل » الى الدرجة التي يقول فيها « ان كتاب العقلية البدائية انما يعتبر مكملا ومتمما لكتاب الوظائف العقلية في المجتمعات الدنيا » كما يقول أيضا « انه كاد أن يطلق على كتاب « الوظائف العقلية » اسم «العقلية البدائية» الا أن المصطلحات العلمية التي تتعلق بمفاهيم « البدائية » و « العقلية » لم تكن قد صدرت ولم يتداول علماء الاجتماع استعمالها قبل صدور كتاب « الوظائف العقلية » (٢)

وفي عام ١٩٢٢ ظهر كتابه ذائع الصيت - وأقصد به كتاب « العقلية البدائية » (٣) وهو « La Mentalité Primitive » وهو من الكتابات الأساسية في ميدان الدراسات الاجتماعية . حيث قدم لنا المؤلف فكرة كاملة عن طبيعة العقل البدائي ومنطقه ، كما ألقى ضوءا على مبدأ السببية وكيف يتفهمه العقل البدائي . وإذا كان كتاب « الوظائف العقلية » قد اتجه نحو دراسة ما أسماه « ليفي بريل » بقانون المشاركة Participation ومعالجة مبدأ

(2) Lévy-Bruhl, Lucien. La mentalité Primitive, Presses Univers. de France, Quinzième Edition Paris, 1947, p. 1.

(٣) قامت الادارة العامة للثقافة بوزارة التربية والتعليم بترجمة هذا الكتاب الى اللغة العربية ، حيث ترجمه الدكتور محمد التضامن وراجعه الدكتور حسن الساعاتي .

ولقد نشرت هذه الرسائل مع اجابات « كونت » بالاضافة الى مقدمة طريفة كتبها « لوسيان ليثي بريل » وفي عام ١٩٠٣ ظهر كتابه الأشهر « الأخلاق وعلم العادات الخلقية » (١)

La morale et la Science des Moeurs

ونظرا للاهمية الأكاديمية لهذا الكتاب فلقد نقله الى العربية الدكتور السيد بدوي والدكتور محمود قاسم ، ولعلنا نلاحظ بوضوح عند قراءتنا لهذا الكتاب ، كيف تأثر « ليثي بريل » بالاتجاه الدوركي في دراسة الظواهر الخلقية ، هذا الاتجاه السوسيولوجي الذي يؤمن بوضعية « أوجست كونت » والذي يتابع فلسفته العلمية التي تنادى بموضوعية الأخلاق ونسبية الظواهر الخلقية .

ومن هنا رفضت المدرسة الفرنسية في علم الاجتماع موقف الفلسفة من الأخلاق ، فأنكرت أخلاق الفلاسفة ، واعتضت على فكرة الالتزام الخلقى والارادة الخيرة التي تقول بهما « مدرسة الواجب » عند كانط . حيث يعالج علم الاجتماع الفرنسى الظواهر الخلقية للانسان الواقعى كما هي قائمة بالفعل . ومن هنا تنبذ الأخلاق الوضعية « ما ينبغي أن يكون » ، على اعتبار أن « ما يجب » لا أساس له من الواقع ، كما أنه من قبيل الوهم الذى ينكره الروح الوضعى . واستنادا الى تلك الوضعية الأخلاقية ، عالج « ليثي بريل » العادات الأخلاقية ، من زاوية « النسبى » و « الوضعى » ورفض « المعيارى » أو « المطلق » .

ومن الكتابات المشهورة التي خلفها « ليثي

(1) Bibliothèque de Philosophie Contemporaine.

الذاتية Principe d'identité وعدم  
التناقض Contradiction فإن كتاب  
« العقلية البدائية » انما يعالج فقط مبدأ السببية  
Causalité

وحول منطق العقلية البدائية وفحواها نشر  
« ليفى بريل » كتابا متعددة ، نذكر منها على سبيل  
المثال كتابه « الطبيعة وما فوق الطبيعة فى الفكر  
البدائى »

« Le Surnaturel et la nature dans la  
mentalité primitive ».

كما نشر أيضا فى هذا الصدد كتابه « المتولوجيا  
البدائية La mythologie primitive » (١) وكتاب  
« الروح البدائى L'âme Primitive »

ولقد انتهى « ليفى بريل » من خلاصة دراساته  
للعقل البدائى ، الى أن هناك نوعين من المنطق ،  
أحدهما للانسان المتحضر ، الذى تتميز لغته  
وتصوراته بالتعقيد والتجريد ، وثانيهما للانسان  
البدائى ، حيث تتميز لغته وتصوراته بأنها مشحونة  
بالكثير من الأوضاع والأشياء المشخصة Concrète

وتتميز «التصورات البدائية» عند ليفى بريل  
بأنها « غيبية mystique » ومن ثم  
فهى تختلف تماما عن تلك التصورات التى نجد  
لدى الشعوب المتحضرة . وارتكنا الى هذا الفهم ،  
حاول « ليفى بريل » أن يشرع قانونا للعقل  
البدائى ، بحيث يصدق على كل مظاهره وأحواله  
الغيبية ، وعلى سائر العلاقات التى تربط « الذات  
البدائية » بعالم الموضوعات التى من حولها  
تحيط .. ذلك العالم الغريب الذى حار فى فهمه

الفكر البدائى فوق اراءه مشدوها ، لما يكتنفه  
من طلاس وأسرار . وفى كلمات دقيقة حدد  
« ليفى بريل فى كتابه « L'Ame Primitive »  
ملامح ذلك العالم وموقف العقل البدائى منه ،  
حيث نجده يقول :

« عند هذه العقلية ، انما توجد تحت الصور  
المختلفة التى تأخذها الكائنات والأشياء فى الأرض  
والهواء والماء ، وتتخللها أيضا حقيقة معينة هامة ،  
وهى أنها واحدة وكثيرة مادية وروحية فى آن  
واحد (٢) » .

يتضح لنا من هذا النص - أن العقلية البدائية  
تتسم « بعدم التمييز » ، لأنها تخلط بين الواحد  
والكثير ، وتمزج بين المادى والروحى ، كما  
يتضح لنا أيضا من هذا النص .. كيف يقف البدائى  
أمام عالم الظواهر والموضوعات على اختلاف  
صورها ، وكيف يشاهد الفكر البدائى الساذج  
عالمه الفيزيقي ببحره وبره ، بسمائه وهوائه ، وعلى  
أى صورة يواجه واقعه الاجتماعى فى أرضه  
وحيوانه ونباته . وإذا كان هذا هو واقع البدائى  
فكيف يؤوله ؟ . هل يعتبره واقعا موضوعيا  
على ما يفعل الانسان المعاصر ؟ .

يجيب « ليفى بريل » - بأن الفكر البدائى  
- قد شيد لنفسه عالما رمزيا غامضا ، انغلق  
فيه الانسان البدائى على ذاته ، فلم يعد انسانا  
لوجهه ، بل يراه فى « صور images  
يواجه « وجوده » مباشرة ، أو يرى واقعه وجها  
ويشاهد فى « رموز Symbols » ، يراه  
منعكسا فى مرآة نفسه ، تلك التى تتألف من  
شبكة معقدة استقاها من مجموع تجاربه الغيبية

(2) Lévy-Bruhl, Lucien, L'Ame Primitive, Paris,  
1927, Deuxième Edition. P. 3.

(1) Bibliothèque de Philosophie Contemporaine.

نشره سنة ١٩٢٣ عن « جان جوريس »  
(١) « Jean Jaurès ».

وأخيرا ... وفي ختام هذه الحياة العلمية  
الحافلة بالبحث الجاد والجهد المضنى ، وفي عام  
١٩٣٩ مات « لوسيان ليفى بريل » . بعد أن قضى  
ما يزيد على الثمانين عاما قضاها ، عالما فيلسوفا  
وأديبا باحثا .

### نظريته الاجتماعية

لقد امتاز « ليفى بريل » بنظرية مشهورة في  
علم الاجتماع ، حين حاول أن يقنن للعقلية  
البدائية قانونا يفسر طبيعة أحكامها وتصوراتها  
منطقية كانت أم وجدانية ، وذلك القانون الذى  
يشعره « ليفى بريل » للعقلية البدائية ، هو  
« قانون المشاركة Loi de Participation » وهو  
قانون منطقى اصطنعه « ليفى بريل » حين وجد  
أن التصورات البدائية تخضع من حيث صورتها  
ومادتها لمنطق آخر يختلف عن منطق المتحضر .  
بمعنى أن العقلية البدائية تتميز تماما عن العقلية  
المتحضرة ، وهذا هو الفرض L'hypothèse  
الذى افترضه ليفى بريل ، والذى توصل منه الى  
أن العقل البدائى ، عقل سابق على المنطق  
Prélogique

ولتأكيد صحة هذا الفرض فقد قام « ليفى  
بريل » بدراسات عديدة ، وجمع الكثير من  
الشواهد والوقائع والظواهر المؤيدة ، التى  
استقاها ليفى بريل من رواد الشعوب البدائية ،

(١) هو « جان جوريس » رجل السياسة الفرنسى ، الذى  
ولد فى « كاستر Castres » عام ١٨٥٩ . ودخل  
مدرسة المعلمين العليا عام ١٨٧٨ ، ثم نال اجازة الفلسفة  
عام ١٨٨١ . ثم اتجه الى الاشتغال بعالم الادب والبلاغة ،  
فجلبته دنيا السياسة ، حيث انه كان يعميل الى المذهب  
الاشتراكى ، فكرس حياته لخدمة الاشتراكية ، ولتفسير مضامين  
الفكر الاشتراكى واتجاهاته المذهبية والعقائدية . وأخيرا قتل  
« جان جوريس » فى باريس سنة ١٩١٤ .

وقد كشف لنا « ليفى بريل » عن وجهة نظره تلك  
فى كتابه الذى نشره فى هذا المعنى باسم  
« L'Expérience Mystique et les symbols  
chez les Primitifs » التجربة

الغيبية والرموز عند البدائيين . حيث أوضح  
فيه تلك النزعة الغيبية والرمزية التى غلبت على  
الفكر البدائى - فذكرنا أن واقع البدائى هو  
واقعه الغيبى ، وأن عالمه هو عالم من الرموز ، تلك  
التى تتميز بأنها « غير معقولة » inintelligible .

ويرجع السبب فى عدم معقوليتها الى أن  
الفكر البدائى - كما يذهب ليفى بريل - قد  
أحاط نفسه بأغلفة كثيفة من الغيبيات ، وبطبقات  
متراكمة من الرموز ، وبأساليب السحر والعرافة  
تلك المظاهر الفكرية والسحرية ، والتصورات  
الغيبية ، هى التى حجبت عن الفكر البدائى  
كل واقع فى ذاته . ولذلك اهتم « ليفى بريل »  
بإبراز مبدأ العلية ، وكيف يتفهمه العقل البدائى ،  
وكيف يربط بين الأحداث الطبيعية والاجتماعية  
ربطاً عليا غيبيا ، كما شرح لنا « ليفى بريل » ،  
أيضا لماذا تؤمن العقلية البدائية بالقوى الخفية ،  
وترفض بشدة الاعتراف بمبدأ الصدفة . hasard

هذه اشارة موجزة لأهم كتابات « ليفى بريل »  
واستعراض سريع لأشهر كتبه وأبحاثه السوسولوجية  
والأنثروبولوجية . ولم يقتصر « ليفى بريل » على  
البحث والتأليف فى ميدان علم الاجتماع ، وانما  
كانت له الكثير من الأبحاث والمقالات البيوجرافية  
الخالصة ، ونذكر على سبيل المثال كتابه الذى

Boschimen يتصفون ببلادة الذهن ، والتعلق

Burchell بالأشياء المادية على ما يزعم « برتشل  
في كتابه «أسفار داخل إفريقيا الجنوبية Travels  
into the interior of Southern Africa

ولقد عاش المبشر Moffat بين  
« الهوتنتوت Hottentots » فوصفهم بالتفكير  
البسيط الساذج الذي يصل الى مستوى تفكير  
الأطفال وضعاف العقول، ولقد نشر «Moffat»  
آراءه في كتابه « Missionary Labours  
and Scenes in South Africa »

ومن المصادر الأساسية التي استند اليها  
« ليثى بريل » كتاب « سبنسر وجيلين  
Spencer and Gillan » ، وأغنى به  
« The Native tribes of Central Australia »  
وكتاب «القس البروتستنتى H.A. Junod

وبخاصة في دراسته المشهورة لقبائل Thonga  
التي نشرها في كتابه الرئيسى  
« The Life of a South Africa tribe  
وكتاب A.W. Howitt الذي نشره باسم  
« The native tribes of South Australia  
Aborigines »

وليست هذه الكتب من المصادر الأساسية  
التي استقى منها « ليثى بريل » وحده ، وإنما  
هى من المصادر الكبرى التي استعانت بها المدرسة  
الفرنسية في علم الاجتماع ، فلقد عكف على  
دراستها « اميل دوركيم » رائد علم الاجتماع  
في فرنسا ، و « رادكليف براون  
Radcliffe-Brown » رائد الاثروبولوجيا  
الاجتماعية الحديثة في إنجلترا .

ولكى يصوغ « ليثى بريل » نظريته  
الاجتماعية للسحر والتصورات البدائية ، استند  
الى كتابات المبشر بتلى W.H. Bentley  
في كتابه « Pioneering on the Congo

وعلماء وصف الأجناس . فلقد التفت « ليثى بريل »

الى دراسات F.H. Cushing فى  
أمريكا الشمالية ، كما اعتمد على أبحاث  
Miss Kingsley لزواج الكونغو الفرنسية (١)  
واستند الى كتابات Elsdon Best»

عن « الماؤورى Maori » ، وبخاصة  
فى كتابه الذي يعتبر من المصادر الهامة التي استند  
اليها « ليثى بريل » فى دراسته للعقلية البدائية ،  
وأغنى به كتاب

« Maori Eschatology. Transactions of the  
New-Zealand institute » حيث

اعتمد Elsdon Best فى هذا  
الكتاب على تقارير « معهد نيوزيلاندة » فى دراسته  
لشعب الماؤورى فى زيلاندة الجديدة (٢) .

ولقد استند « ليثى بريل » أيضا الى كتابات  
الرحالة والآباء اليسوعيين وصلوا الى  
المجتمعات الهندية فى أمريكا وبخاصة مجتمع  
« الأروكو Iroquois » ، فوجدوا أن الهندي  
الأروكى يعجز عن القيام بعمليات الاستدلال  
والتفكير المنطقى . كما اعتمد « ليثى بريل » أيضا  
على كتاب المبشر Crantz  
سكان « جرينلاند » الذي نشره تحت عنوان  
« The history of Groeland »

ولقد شاع « ليثى بريل » فى هذا الكتاب  
اتجاهات وآراء اليسوعيين والمبشرين ، التي ترى  
أن البدائيين لا يشغلهم شيء سوى الصيد والغذاء ،  
وأن التفكير يكاد يكون معدوما لدى الشعوب  
البدائية ، فالاسكيمو لا يشغلون الا بالصيد  
وجمع كمية اللحم الكافية للشتاء . والبوشمان

(1) Lévy-Bruhl, Lucien, Les Fonctions Mentales  
dans les Sociétés Inférieures.

(2) Lévy-Bruhl, Lucien, La Mentalité Primitive,  
Press Univers. P. 98.

اليها « ليقي بريل » فى تكوين نظريته المشهورة  
عن العقلية البدائية .

فلقد استنتج « ليقي بريل » من كل تلك  
المصادر الاثنوجرافية ما يؤيد صحة فرضه ، وما  
يؤكد نظريته العامة التى تذهب الى أن هناك  
منطقا سابقا للانسان يتمثل فى « المنطق البدائى »  
ويتحقق فى بنية العقلية البدائية التى تتميز فى  
رأيه عن بنية الفكر المتحضر .

كما استنتج « ليقي بريل » أيضا من كل تلك  
المصادر الهائلة أن هناك عنصرا معيناً بالذات يغلب  
على الفكر البدائى برمته . وأن هناك طابعا عاما  
يميز كل حالاته المنطقية من حيث صورتها ومادتها  
على السواء ، بحيث تتضمن كل حالة من تلك  
الحالات المنطقية ، نوعا من المشاركة  
Participation بين عالم الذات البدائية من جهة  
وعالم الموضوعات Objets من  
جهة أخرى حيث أن عالم الموضوعات كثيرا ما  
يرتبط بالكثير من التصورات الجمعية  
représentations Collectives التى  
تكن فى باطن العقلية البدائية .

واستنادا الى هذا الفهم أطلق « ليقي بريل »  
ما أسماه « بقانون المشاركة » باعتباره قانونا عاما  
للعقلية البدائية ، يفسر كل « تصوراتها » ، ويصدق  
على كل حالاتها العقلية ومظاهرها الوجدانية جميعا  
.. ويقول « ليقي بريل » فى تحديد صيغة هذا  
القانون الذى اصطنعه :

« اننى أطلق قانون المشاركة على المبدأ المميز  
للعقلية البدائية الذى يحكم الروابط وسوابق  
الروابط التى تربط التصورات » (٢) .

الذى يرى فيه أن الفرد من جماعات « البانتو  
Bantou » لا يفكر ولا يتعقل  
أو يعلل ، وانما يعتمد فقط على ذاكرته وقوة  
ملاحظته ودقة محاكاته  
l'imitation  
للآخرين ، ولكن قدراته على البرهنة raisonnement  
والابتكار l'invention  
انما تظل خامدة لا وجود لها .

ولكى يستشهد « بنتلى Bentley »  
على وجود عالم الغيبيات والسحر والعرافة لدى  
البدائيين - يذكر لنا أن « هويتهد Whitehead »  
وجد ذات يوم مطير ، أحد عماله جالسا فى مهب  
ريح باردة ، فسأله « هويتهد » أن يدخل بيته  
ويغير ملابسه ، ولكن الرجل أجابه بقوله : « لا يمكن  
أن يموت الانسان بتأثير ريح باردة ، اذ لا أهمية  
لذلك مطلقا ، وانما لا يمرض الانسان أو يموت  
الا بسحر ساحر » (١) .

وليس من شك فى أن دراسة « ليقي بريل »  
لتلك الكتابات هى التى دفعته الى أن يتوصل  
الى تلك الحقيقة السوسيولوجية التى اشتهر بها ،  
والتي مؤداها أن العقلية البدائية لا تلتزم بقوانين  
المنطق ، كما أنها تنفر من عمليات التعليل والبرهنة  
والتفكير المجرد La pensée abstraite .  
حيث تتميز العقلية البدائية بأنها عقلية غيبية  
mystique وتتجه نحو التفسير  
السحري وتنزع الى ما هو فوق طبيعى Surnaturel  
على ما يقول « ناسو Nassau » فى  
كتابه « Fetichism in West Africa »  
ويعتبر هذا الكتاب من المصادر الهامة التى استند

(2) Lévy Bruhl, Lucien, Les Fonctions Dentaires  
dans les Sociétés Inférieures, Paris, 1928. P. 76.

(1) Lévy-Bruhl, Lucien, La Mentalité Primitive,  
Press. Univers. P. 19.

منه ، وبالرغم من ذلك تكون مصدرا لقوى وتأثيرات تنبعث منها ، وتسرى الى أمكنة بعيدة .

ولقد أطلق « ليشى بريل » على تلك الظاهرة التي يتميز بها منطق الفكر البدائي اسم « مبدأ المشاركة » وهو ضرب من مبدأ الذاتية Principe d'identité يطبقه البدائيون تطبيقا غير موفق ، بسبب تلك المشاركة أو الذاتية العمياء التي تعطل « مبدأ عدم التناقض » .

بمعنى أن البدائي لا يفهم المضمون الحقيقي المنطقي لمفهوم التناقض ، فبالنسبة للعقلية البدائية ، لا يحتم التناقض بين الواحد والكثير ، وبين الذات والغير ، ان تأكيد أحد الطرفين يستوجب نفى الآخر .. اذ أن هذا التناقض المنطقي الواضح ، لا يهتم له البدائي كثيرا في رأى « ليشى بريل » .. ولكن البدائي في رأيه انما يؤمن بقوة المشاركة الخفية ، تلك التي توحد بين أشياء وكائنات ، لا يستطيع فكرنا أن يمزج أو أن يوحد بينهما .

قانون المشاركة بين الذاتية وعدم التناقض :

لقد قصد « ليشى بريل » بتلك « المشاركة » بأنها اشتراك كل فرد من أفراد العشيرة البدائية في طبيعة « طوتم Totem » معين بالذات كأن يعتبر نفسه حيوانا أو طائرا ، فمثلا عند قبائل Trumoi في شمال البرازيل ، يؤكد الأفراد أنهم من سلالة حيوانات مائية . ويفخر قبائل Bororo - وهي قبائل مجاورة « للتراموا » - أنهم ببغاوات حمراء ، ولا يعنى ذلك أنهم يعتقدون بالتحول الى ببغاوات بعد الموت عن طريق التناسخ ، أو أن الببغاوات ليست الا أفراد القبيلة « متناسخة »

وفي ضوء هذ القانون يتضح لنا كيف حاول « ليشى بريل » أن يشرع للعقلية البدائية ، وأن يضع « تعميقا » Generalisation لسائر التصورات الجمعية البدائية ، وبفضل هذا القانون أيضا - نستطيع أن نسبر غور العقل البدائي ، وأن نتعرف على طبيعة « معايير المنطقية » و « أقيسته العقلية » ، كما يفسر لنا قانون المشاركة على أية صورة يتفهم الفكر البدائي الساذج حركة الظواهر الفيزيكية من حوله ، وكيف يتعقل مبدأ العلية Principe de Causalité الذي يفسر تتابع الأحداث والوقائع الجزئية التي تقع تحت سمعه وبصره .. وكيف يتصور البدائي « هوية الأشياء » وذاتية بنى البشر .

ذهب « ليشى بريل » الى أن العقلية البدائية تتصور الأشياء والكائنات بطريقة غريبة ، اذ أن البدائيين لا يميزون بين الأشياء ، ويخلطون بينها أشد الخلط ، كما غفلوا عن « مبدأ عدم التناقض » الذي يتميز به منطق الفكر المتحضر ، ولذلك كانت الأشياء والكائنات والظواهر حسب منطق الفكر البدائي ، يمكن أن تكون « هي نفسها وشيء آخر من نفس الوقت ، وهذا ما يعنيه « ليشى بريل » في هذا الصدد بقوله :

- ان العقلية البدائية - تتصور الأشياء والكائنات والظواهر بطريقة غريبة لا يتقبلها فكرنا فهذه الأشياء يمكن أن تكون هي نفسها وشيئا آخر في نفس الوقت (١) .

ومعنى ذلك أن « ليشى بريل » قد كشف عن طبيعة الأشياء وهويتها كما يتفهما البدائي ، فوجد أن تلك الأشياء قد تظل في مكانها دون أن تتقل

(1) Lévy-Bruhl, Lucien, Les Fonctions Mentales dans les Sociétés Inferieures, Paris 1928 Page 76.



« métamorphosé » - بل ان الأمر يختلف عن ذلك .

ففى هذا الصدد يقول « فون دن شتاينين

: Von Den Steinen

- ان الأفراد يؤكّدون ببساطة أنهم يبعثون  
فى حالاتهم الراهنة - كما تؤكد دودة القز أنها  
كانت فراشة قبل أن تتحول .

هذا هو معنى « المشاركة » عند

Von den Steinen فالمسألة ليست مجرد تسمية ،  
كما نعتقد ، أو مجرد قرابة أو حقيقة سلبية يدعونها  
بل ان الأمر عند Bororo يتلخص  
فى اعتقادهم ، أنهم كائنات انسانية وهم فى نفس  
الوقت طيور أو ببعثات ذات ريش أحمر .

ولقد وجد « فون دن شتاينين » صعوبة كبيرة  
فى استساغة تلك الظاهرة أو تفسيرها ، ولكنه اضطر  
الى الاعتراف بوجودها بعد التأكيدات القوية التى  
سمعها من بين أفراد تلك القبائل .

ولكن « لوسيان ليشى بريل » قد أزال تلك  
الصعوبات التى واجهت « دن شتاينين »  
Von den Steinen فى تفسير تلك الظاهرة  
الغريبة ، وهنا ينبه « ليشى بريل » الأذهان الى  
قيمة « قانون المشاركة » باعتباره تفسيراً لتلك  
الظاهرة ، ويقول « ليشى بريل » فى الرد على  
« فون دن شتاينين » :

« لقد حكم فون دن شتاينين حكماً غير قابل  
للتصور .

« ولكن عند عقلية يحكمها قانون المشاركة  
فلا تكون هناك أية صعوبات . اذ أن كل المجتمعات  
ذات الشكل التوتيمى تحمل تصورات جمعية من  
نفس النوع ، كما يتضمن كل فرد من أفراد الجماعة

التوتيمية هوية واحدة على صورة « التوتيم  
الجمعى » (١) .

فى ضوء هذا النص - يتضح لنا أن « ليشى  
بريل » قد أدلى برأيه فى تفسير تلك الظواهر  
الغريبة التى اتسمت بها العقلية البدائية ، فردّها  
الى « مبدأ المشاركة » الذى يفسر طبيعة « الهوية »  
عند البدائي ، على اعتبار أنها « هوية توتيمية »  
ترتد الى صورة التوتيم نفسه ، وترجع الى هيئة  
أو نوع الاله المعبود .

وعلى هذا الأساس - كانت العقلية البدائية  
عند « ليشى بريل » عقلية غيبية mystique  
تعتقد من قوى خفية أو علل سحرية تهيمن على  
حياته وتشترك فيها ، اذ أن هناك نوعاً من  
« المشاركة » بين الكائنات الانسانية والحيوانية  
وبعض الظواهر الفيزيائية كالبرق والريح ، كما  
وتحدث هذه المشاركة فى صور وأشكال مختلفة ،  
اما بطريق الاحتكاك أو « الملاسة » Contact  
واما بطريق الأفعال السحرية التى تتردد صداها  
من مسافات بعيدة .

المشاركة والعلية :

وارتكنا الى هذا الفهم ، فان « مبدأ المشاركة »  
عند « ليشى بريل » يرتبط أصلاً بفكرة العلية  
والمعلولية فى منطق الفكر المتحضر الذى يفسر  
الظواهر بعلاقاتها السببية ، وبذلك يتبين لنا  
فى النهاية أن فكرة « المشاركة الغيبية »  
Participation Mystique تفسر شكلاً من أشكال  
« العلية الغيبية » ، كما وتحتل مكاناً هاماً فى  
تشكيل المنطق البدائي .

(1) Ibid : P. 78.

ذلك المبدأ الغيبي ، الذى يفسر حذر البدائى وحرصه على عدم ترك أى أثر من آثاره ، ويستطيع العدو استخدامه لايقاع الأذى به .

اذ أن طعام البدائى وملابسه ، وآثار أقدامه، وقصاصات شعره ، وقلامة ظفره ، كلها أمور تتعلق بذاتيته أو « هويته » ، وفى اعتقاده أن التأثير عليها عن طريق العمليات السحرية قد تؤثر فى كيان الشخص نفسه . وعلى أساس هذا الفهم يقول « ليشى بريل » :

« لا يحتم التعارض بين الواحد والكثير ، وبين الذات والغير ، بالنسبة لتلك العقلية ، ان تأكيد أحد الطرفين لا يستوجب نفى الآخر ، فان لذلك قيمة ثانوية لدى العقل البدائى » (٢) .

ويتضح لنا من هذا النص أن «مبدأ المشاركة» الغيبي ، لا يتفق أصلا ومبدأ عدم التناقض ، اذ أن هذا المبدأ الأخير يكون له فى منطق الفكر البدائى قيمة ثانوية محضة .

وخلاصة القول فيما ذهب اليه « ليشى بريل » أن تصورات البدائى وأحكامه تختلف كلية عن تصوراتنا وأحكامنا، كما أن «الصور Les images» التى يؤلفها ويشاهدها العقل البدائى ، ليست شبيهة بتلك الصور التى يؤلفها ويشاهدها العقل المتحضر ، اذ أن لكل « صورة image » من تلك الصور ، يجد البدائى فى عقله « مثالا modèle » لها - ومن ثم اعتقد البدائيون استنادا لمنطق المشاركة ، بأنهم « صور » لمثال حيوانى أو نباتى ومن هنا كان اعتقاد Bororo بأنهم صور على «مثال» البيغاوات . ولعل هذا

ونظرا لما تتميز به « العقلية البدائية » من اعتقاد « بالعلية الغيبية » مع الايمان بفكرة المشاركة ، وبالهوية التوتمية ، ونظرا لاغفال العقلية البدائية « لمبدأ عدم التناقض » وتعطيلها له ، وعدم التزامها به ، فلقد أطلق « ليشى بريل » على تلك العقلية البدائية ، اسم « العقلية السابقة على التفكير المنطقى Prélogique » .

معنى السابق على المنطق Prélogique

ولكن ماذا يعنى « ليشى بريل » بمفهوم « السابق على المنطق » ، هذا الاصطلاح العلمى الجديد الذى اشتهر به « ليشى بريل » وحده دون سائر السوسيولوجيين والأنثروبولوجيين ؟ ... يجيب « ليشى بريل » عن تساؤلنا بقوله :

« انها ليست عقلية مضادة للمنطق ، كما أنها ليست مقيدة بمعايير منطقية . وحين أسميها سابقة على التفكير المنطقى ، فانما أعنى فقط أنها لا تلتزم كما يفعل فكرنا بالامتناع عن التناقض . وأنها تخضع فقط لقانون المشاركة » (١)

من خلال تلك الكلمات التى ساقها « ليشى بريل » يتضح لنا ما يعنيه بتلك العقلية التى وصفها بأنها « سابقة على المنطق » فهو لم يقل « انها مضادة للمنطق Antilogique » كما أنه لم يعتبرها Alogique بمعنى أنها لا تنقيد بأى معيار منطقى ، ولكن « ليشى بريل » قد قصد بتلك العقلية السابقة على المنطق ، قصداً معيناً « بالذات ، بمعنى أن الفكر البدائى لا يتقيد بما يتقيد به الفكر المتحضر من قيود ، فلم يلتزم ذلك العقل السابق على المنطق بمبدأ عدم التناقض ، بل أنه على العكس من ذلك قد التزم بمبدأ المشاركة

(2) Ibid : P. 77.

(1) Ibid : P. 79.

له موقفه وفلسفته فى الحياة ، ونظراته فى الله وفى نفسه وفى العالم على ما يذكر « بول رادين » فى كتابه « Primitive man as Philosopher ».

حيث يرى « رادين » فى هذا الكتاب ، أن البدائى يستطيع أن يميز بين الصواب والخطأ فهو انسان مفكر ، وأن لفكره هذا أشكاله العليا التى تتمثل فى أخلاقه ومثله ، كما وقد أطلعنا « رادين » على الكثير من أقوال البدائيين وكلماتهم الماثورة التى تؤكد فهما منطقيا واضحا لا ينبغي انكاره (٢) .

ولقد انتقد الفيلسوف الفرنسى « هنرى برجسون » نظرية « ليشى بريل » انتقادا لاذعا ، وأنكر عليه قوله بغيرية العقلية البدائية وبتمايز بنيانها العقلى تمايزا كليا عن بنيان العقلية المتحضرة والحقيقة عند « برجسون » - أن «بنية الفكر» لا تتغير ، وتبقى هى فى جوهرها وثباتها ، ولكن التجربة التى اكتسبتها الأجيال المتعاقبة ، وأودعتها المحيط الاجتماعى ، ثم عاد المجتمع فردا الى كل منا ، هذه التجربة هى السبب فى مذهب برجسون ، فى اختلاف تفكير البدائى عن تفكير المتحضر ، اذ أن الفكر يعمل اليوم كما كان يعمل بالأمس ، ولكنه لا ينصب اليوم على نفس المادة ، وهذا ناتج فى رأيه ويرجع الى تبدل حاجات المجتمع بالأمس ، واختلافها عن حاجته فى هذه الأيام (٣) .

ومعنى ذلك - أن « مادة الفكر » قد تغيرت وأن الحضارة الاجتماعية قد بدلت الانسان تبديلا عميقا ، اذ أنها ركمت فى المحيط الاجتماعى ، حيث زحفت على الانسان طبقات كثيفة من العادات ،

التفسير الذى ساقه « لوسيان ليشى بريل » يذكرنا بالتصور الميتافيزيقى اليونانى القديم ، لفكرة المشاركة بين « الصورة » و « المثال » عند أفلاطون .

وليس من شك فى أن موقف « ليشى بريل » من العقلية البدائية ، يعد مساهمة رائعة فى ميدان الدراسات المنطقية البدائية ، كما أنها محاولة تفرد بها وحده - دون سائر العلماء - لسبر غور الفكر البدائى . ولكن هل أصاب « ليشى بريل » أم أخفق؟؟ وهل نجح بصفة قاطعة فى رسم الخطوط الرئيسية للملامح العقلية البدائية؟؟

فى الواقع - أن موقف « ليشى بريل » من العقلية البدائية ، لم يسلم من الاعتراض والانتقاد حيث اعترض عليه الكثير من الفلاسفة وعلماء الاجتماع ، من أمثال « روبرت Robert Lowie » و « رادين Radin » و « برجسون Bergson » و « الأب شмит Schmidt »

فلقد ذكر «لوى» أن «ليشى بريل» قد تجاهل ذكاء الانسان البدائى ، وأغفل عقله وأهمل منطقته ، حين طلع علينا بقانون المشاركة ، اذ أن زعم «ليشى بريل» بأن العقلية البدائية سابقة على التفكير المنطقى ، وأنها لاتعرف القواعد المنطقية ، زعم لا يطابق الحقيقة (١) . فلاشك فى أن البدائى يفكر وأنه حين يفكر انما يفكر داخل نطاق منطقى ، وحسب أقيسة منطقية أيضا ، فلا يصح اطلاقا أن ننفى قدرة البدائى على التفكير المنطقى ، أو أن ننكر قواه الذكائية والفكرية ، فمن الثابت أن البدائى هو «انسان منطقى» ، بل انه «فيلسوف»

(2) Radin, Paul, Primitive Man as Philosopher, N.Y., London. 1927. PP. 230-231.

(3) Bergson, Henri, Les Deux Sources de la Morale et de la Religion. Press. Univers. Paris. 1955. P. 106.

(1) Lowie, Robert, History of Ethnological Theory, London, 1938. P. 218.

وركمت عليه الكثير من الركامات والمعارف التي سكبها المجتمع في الفرد ، وإذا نحن انتزعنا تلك القشرة السطحية ومحوناها ، لوجدنا في أعماق الفرد تلك الانسانية البدائية بصفاها ونقاها .

هذه هي بعض الاعتراضات التي أعلنها الفلاسفة وعلماء الاجتماع في دحض نظرية « ليفي بريل » في العقلية البدائية ، ولقد أشار « الأب شमित Schmidt » في كتابه : « أصل ونشأة الدين The Origin and Growth of Religion » إلى اعتراض آخر استند إليه من وجهة النظر التاريخية البحتة التي يمثلها « الأب شमित » خير تمثيل ، فذكر أن « ليفي بريل » قد أخفق في دعواه التي تتعلق بمسألة التفكير البدائي السابق على المنطق Prélogique إذ أن « ليفي بريل » لم يحاول أن يحدد نسقا تاريخيا ، بفضل تترتب المجتمعات وفق ترتيب أو في تتابع زمني ، حيث تتضح لنا من خلاله ملامح المراحل المختلفة لمظاهر التفكير « اللامنطقي » أو السابق على المنطق ، وبالتالي يستحيل علينا في رأي « شमित » القول « بمنطقية » أو « سبق منطقية » العقلية البدائية دون أي تحديد سابق لها ، من حيث نشأة هذا التفكير المنطقي وتطوره خلال التاريخ ، وهنا يكمن المصدر الأساسي في اضطراب دراسات « ليفي بريل » الأثروبولوجية (١)

ولقد اعترض « شमित » أيضا بأن « ليفي بريل » لم يحدد لنا تعريفا علميا دقيقا لما يقصده « بالبدائي Primitif » وهي كلمة عسيرة الفهم ، جعلها « ليفي بريل » قاصرة على « غير

الأوروبيين » ، كما أنه بصدد الشعوب البدائية ، كثيرا ما يطلق عليها اسم « الشعوب المنحلة » أو « الدنيا Inférieure » أو « المتوحشة Sauvage » وهذه مصطلحات بعيدة كل البعد عن روح البحث العلمي النزهي ، كما أنها ليست من الانسانية في شيء ، حين يحكم على « بني البشر » هذا الحكم الشاذ الغريب ، فالشعوب البدائية ليست الا شعوب بسيطة قد تخلفت عن ركب حضارتنا ، فلا يصح اطلاقا أن نعتبرها « شعوبا منحلة » أو نسميها « بالمجتمعات المتوحشة » لمجرد أنها تؤمن ببعض المعتقدات الساذجة ، فلقد غاب عن « ليفي بريل » أن هناك الكثير من مظاهر التفكير السابق على المنطق تتجلى بوضوح في مجتمعات متقدمة في أوروبا وأمريكا ، حين نشاهد أحيانا ، شدة الايمان بمسائل غيبية أو خرافية ، إذ أن هناك آثارا للسحر مازالت عالقة في جوانب الحضارة الحديثة .

وأخيرا - نستطيع أن نختم تعقينا على نظرية « ليفي بريل » في العقلية البدائية ، فنقول ان النقد الحاسم لافتراضات « ليفي بريل » عن « عدم التناقض والذاتية » عند البدائيين ، لا يمكن الا أن يكون نقدا في مستوى فلسفي بحث ، وفي ضوء هذا المستوى ، وفي ضوء برجسون نفسه ، الانسان واحد بعينه ، لا يختلف منطقه أو عقله قديما أو حديثا ، وأن الفكر الانساني أيا كان لا يستطيع أن يتخلى عن التفكير بقانوني « الذاتية وعدم التناقض » ، فالعقل أو الذكاء من حيث هو كذلك واحد في كل الأجيال ، ولذلك فإن افتراضا كافتراض قانون المشاركة ، ان هو الا خيال خصب عند « ليفي بريل » فلا يختلف البدائي عن المتحضر الا في المادة أو التطبيقات لقانوني الفكر الأساسيين أعني الذاتية والتناقض .

(1) Schmidt, W., The Origin and Growth of Religion — Facts and Theories, trans. by H.J. Rose — London. 1931. P. 133.

يشتمل هذا المؤلف على أربعة عشر فصلا تعالج كثيرا من السمات التي تحدد الملامح العامة لبنية العقلية البدائية . ففي الفصل الأول يتناول « ليقي بريل » فكرة السببية Causalité ، وكيف تغفل العقلية البدائية عن استعمال الأسباب الطبيعية Les Causes naturelles وفي فصل ثان يحدثنا عن « القوى الغيبية غير المنظورة » ، وفي فصلين كاملين يشرح « ليقي بريل » فكرة التطير Présage كما يتناول في فصل آخر « الأحلام les Rêves » عند البدائيين ، ثم يتناول أخيرا في ثلاثة فصول كاملة تلك التفسيرات البدائية لأسباب الكوارث وعوامل نجاح البدائي أو فشله واخفاقه ، ونفوره من الجديد ، وتفسير البدائي البسيط لأسباب ظهور البيض .

ولقد حاول « ليقي بريل » بهذا الكتاب أن يضع مقدمة عامة لدراسة العقلية البدائية ، بالالتفات الى البناء الصوري لمنطق الفكر البدائي ، مع الاشارة الى محتويات العقل البدائي واطاراته الفكرية في ضوء تجربته البدائية الساذجة .

كما حاول « ليقي بريل » أيضا أن يؤكد تمايز العقلية البدائية عن العقلية المتحضرة ، على اعتبار أن العقلية البدائية - في زعم ليقي بريل - هي عقلية سابقة على التفكير المنطقي Prélogique ، لأنها عقلية غيبية mystique ، تؤمن بالقوى الخفية غير المنظورة Les puissances invisibles .

ولا يفوتنا أن نذكر أن « ليقي بريل » قد انتفت الى لون جديد من ألوان الدراسة وهو دراسة الأحلام والتطيرات ، مع الاهتمام بما يقلق

حياة البدائي وينذر بها بالشر ، أو ما يتفاعل بوجوده العقل البدائي كوسيلة للتفسير حين يستطلع المستقبل وحين يقوم استطلاعاه على فكرة التنبؤ الغيبى .

ولم ينهج ليقي بريل في هذا الكتاب منهجا بنائيا Structural فى دراسة النظم البدائية حيث أنه لم يتقيد بالمنهج البنائى لدراسة النظم institutions أو الانساق Systems

أو حتى دراسة التنظيم الاجتماعى عند البدائيين ، كأن يركز الاهتمام مثلا على دراسة الأسرة أو القانون ، كما لم ينشغل « ليقي بريل » بدراسة عقيدة دينية كالعقيدة الطوطمية ، بقدر ما يلتفت الى دراسة العقل أو منطق التفكير البدائي ، وذلك بقصد سبر غور العقلية البدائية .

ولذلك يؤكد « ليقي بريل » على أنه ليس للعقل البدائي القدرة على الاستدلال المنطقى أو القيام « بالعمليات المنطقية للتفكير Opérations

discusives de la pensée » على ما يفعل الانسان المتحضر . وفي زعم « ليقي بريل » أن البدائي لم يتقدم ذكائيا وفكريا ، الا بالاحتكاك بالثقافات الأوروبية المتحضرة ، الأمر الذى جعل العقلية البدائية تبذل جهدا عقليا أكثر تجريدا abstraction

وقد يتساءل الانسان العادى ، كيف تعزف العقلية البدائية عن عملية الاستدلال والتعليل ، على الرغم من أنها من عمليات التفكير الطبيعية التى لها وظيفتها المنطقية الدائمة فى العقل الانسانى ؟

يقول « ليقي بريل » فى الرد على هذه المسألة بأن هذا العزوف عن الاستدلال والنفور من التفكير العلى الطبيعى ، انما لا يرجع الى قصور أو عجز أصيل فى العقل البدائي ، حيث يوجد بين البدائيين « عقول قادرة على التفكير العلمى » ، تماما على غرار العقل الأوربى ، كما أن أطفال

« ميلانيزيا » يتعلمون من دروس المبشرين بنفس السهولة التي يتعلم بها أطفال الفرنسيين أو الانجليز .

وعلى هذا الأساس - فقد ذهب « ليثى بريل » الى أن هذا العزوف عن التفكير المنطقي ، لا يرجع الى حالة من القصور أو الخمود العقلي torpeur intellectuelle حيث يوجد بين البدائيين من يتسم بالذكاء والفطنة والمهارة . ولعلها عقلية تنفر من المنطق ، لأنها عقلية غيبية mystique ، لا تميز بين عالم الغيب وعالم الشهادة ، ولا تفرق بين الواحد والكثير ، أو المنظور visible وغير المنظور invisible .

وفى هذا الصدد يقول « جون فيليب John Philip » فى كتابه « أبحاث فى جنوب افريقيا » (١) يقول فيه : « ان البتشيوانيين Bechuanas. يحيطون بالاجلال كل شئ مجهول ، وذلك لأنهم يجهلون الأسباب الطبيعية ، ويؤمنون بالقوى غير المنظورة .

### فكرة الموت والقوى غير المنظورة :

ليس الموت - عند البدائي - ظاهرة طبيعية ، انما يرجع الموت الى فعل انسان ، بمعنى أن كل حالة من حالات الموت ، مهما كانت ، سواء أكان الموت من طعنة رمح ، أو بعدوى مرض ، أو بلدغة أفعى ، انما يرجعها البدائي جميعها الى تأثير سحرى قام به أحد السحرة .

ومن ثم - فلا يقتل الرمح ، ولا تودى لدغة الأفعى بحياة الناس ، الا اذا كان هناك أفعالا سحرية مسبقة ، بمعنى أن الرمح والأفعى والمرض ، ليست جميعا الا أدوات لتنفيذ حكم سحرى صادر

يقوم به الساحر بمساعدة أرواح الموتى أو قوة المانا Mana

فاذا سقط شخص فى الماء ثم غرق ، قالوا انه سحر مبین ، واذا افترسه نمر أو هاجمه ذئب ، زعموا أن عدوا تحول من انسان الى حيوان ، بفضل ضروب السحر وأساليبه . ولذلك يظن البدائي أن الساحر فى قدرته أن يسلم أى صياد الى جاموس أو فيل ليفتك به ، كما يعتقد أن الساحر يستطيع أن يعهد الى هذا الحيوان باهلاكه من يشاء (٢) .

ولذلك يقول « بنتلى Bentley » ان أهل الكونغو الأصليين ، لا يرون أن المرض والموت من الأحداث الطبيعية ، ولا يرجعونها الى أسبابها ، وانما يرجعونها فقط الى فعل السحرة ، وهم يتمسكون بهذا المعتقد فى اصرار عجيب ، وبعد تام عن المنطق .

وفى « سيراليون Sierra-Leone » - لا يعتقد الأهالى فى وجود موت طبيعى أو عرضى ، فهم يرجعون الموت الى سبب فوق طبيعى Surnaturel ، ويعزونه تارة الى ممارسة عمليات السحر ، وتارة أخرى الى الأرواح الشريرة أو الى روح موكلة بشخص سبق للمتوفى أن مارس السحر ضده ، ويستدلون على ذلك بحدوث الوفاة نفسها .

وتعتقد قبائل « الدشاجا Dschagga » فى افريقية الشرقية الألمانية ، أنه لا يوجد « موت طبيعى mort naturelle » ، ويعزون المرض والموت الى بعض الأعمال الشيطانية diabolique ومعنى ذلك - أن البدائي يفسر ظاهرة الموت تفسيراً غيبياً ، ويرى أن الموت ليس طبيعياً ، أى

(2) Lévy-Bruhl, Lucien, La Mentalité Primitive, Press. Univers. de France, Paris, 1947. P. 23.

(1) Researches in South Africa

التجارب التى تمثل التراث البدائى القديم ، هى التى تغنى العقل البدائى من التفكير والاستدلال والاستنتاج .

ويمكننا أن نقول - ان المميز الأساسى - بين عالمنا الوضعى ، وعالم البدائى الغيبى ، هو أن عالمنا وتجاربنا يتكون من معطيات *données* قليلة العدد ، ومن عدد لا يحصى من الاستنتاجات *inductions* أما العقلية البدائية فتتمايز تماما حيث تتضمن نسبة ضئيلة من الاستنتاجات ، ولكنها تنطوى على عدد لا يحصى من المعطيات المباشرة *données immédiates* تلك هى المعطيات الاجتماعية الغيبية ، التى تساوى فى نظر البدائى معطيات الحواس *les donnés des sens* (١) بل وتفوقها واقعية ، اذ أنها تصدر عن عالم أكثر حقيقة وأغزر واقعا ، وهذه المعطيات الاجتماعية ، هى المعطيات الغيبية *donnés mystiques* تلك التى تصدر عن عالم التجربة البدائية .

وبعبارة أكثر دقة ، فان منطق العقلية البدائية ، يتوقف أساسا على الحقيقة الجوهرية الغيبية ، تلك الحقيقة القائلة ، بأن العالم المحسوس *le monde sensible* ، والعالم الآخر *l'autre monde* لا يكونان فى نظر العقل البدائى الا شيئا واحدا . كما أن عالم الكائنات المرئية *les êtres visibles* لا ينفصل تماما عن عالم الكائنات غير المنظورة *les êtres invisibles* . ولعل هذا العالم البدائى غير المنظور ، لا يقل نشاطا وتأثيرا وازعاجا عن العالم المنظور ، فهذا العالم الغريب ، هو الذى يشكل طبيعة العقلية البدائية ، بل ويصرفها تماما عن عالم المدركات الموضوعية .

أنه ظاهرة لا تفسرها أسبابا طبيعية ، حيث أن الحال عند هذه العقلية البدائية التى لا تنشغل الا بالارتباطات الغيبية ، لا ترى مانسميه « سيبيا » أو « علة » الا على أنه « مناسبة » ، أو بقول أدق لا تراه الا « أداة *instrument* » فى يد القوى الغيبية ، بمعنى أن الرمح والأفعى والمرض ليسوا جميعا - كما قلنا - الا « أدوات » لتنفيذ حكم أو ارادة ساحر .

وجملة القول - لو واجه البدائى شيئا يروقه أو يزعجه ويثيره ، فانه لا يتبع ازاءه نفس المسلك الذى يسلكه عقلنا ، وانما ينخرط فورا فى طريق مختلف عن طريقنا .

واستنادا الى هذا الفهم - فان العقلية البدائية هى غيبية وغير منطقية ، ولكن ذلك لا يرجع الى ضعف فى طبيعة الفكر البدائى ، أو الى شلل عقلى يصيب بنيان الفكر ، اذ أن البدائى يعيش ويعمل ويفكر ، ولكن فى عالم غريب لا يتفق مع عالمنا حيث ان العقل الأوروبى حتى أكثره شاعرية وخيالا واغراقا فى الميتافيزيقا ، انما يعتبر مسرفا فى الوضعية *Positivism* بالنسبة لعقول البدائيين وبناء على هذا الأساس - فان عالم البدائى يختلف تماما عن عالمنا .

وليس من شك - فى أن هذه العقلية بالذات ، هى التى تدعو الى الاعتقاد بأن العالم الذى يحيط بها عبارة عن لغة *langage* تستعملها الأرواح فى مخاطبتها بعضها بعضا . كما أن العالم البدائى الغيبى ، هو عالم ملئ بالتجربة *expérience* تلك التجربة التى تعتبر أكثر تعقيدا وثراء فى المحتوى من تجربتنا . حيث ان منطق البدائى ، لا يقوم فى تفسيره على الاستنتاج *conclusion* العقلى ، بقدر ما يقوم على تجاربه الماضية ، وهذه

(1) La Mentalité Primitive. P. 49.

التي تدور في المجتمع البدائي ، وعلى ذلك تكون العقلية البدائية - في زعم ليفي بريل - عقلية تؤمن بالعلة الغيبية .

ولعل السمة الرئيسية التي تتسم بها العقلية البدائية ، هي أن البدائي لا يؤمن بالمصادفة hasard : حيث ان البدائي

لا يؤمن بالموت الذي يحدث مصادفة أو عرضا ، حيث أن المرض في ذاته أو طعنة الرمح في ذاتها ، ليست جميعا هي أسباب الموت الطبيعية ، ولكنها مجرد « أدوات » أو « آلات instrument » تستخدمها القوى الغيبية الخفية .

فلا تؤمن العقلية البدائية بالموت العارض أو الحادث العارض ، ذلك لأن الحادث العارض l'accident ، بمعناه الحقيقي ، لا وجود له في نظر العقلية البدائية ، ومن ثم لا وجود أيضا للمصادفة . فليس الحادث العارض في نظر البدائي ، الا مظهرا لاحدى القوى الغيبية التي تصيب الانسان .

وليس معنى ذلك أن العقلية البدائية تؤمن بمبدأ الجبرية déterminisme الصارم ، فالبدائي لا يعرف جبرية الظواهر أو حتميتها ، حيث انه أصلا يغفل عن استعمال مبدأ السببية ، فيعزو كل حادثة الى أصلها الغيبى . حيث ان القوى الغيبية تحيط من كل جانب ، فالبدائي لا يحتاج الى تفسير الحادثة ، فهي التي تفسر نفسها بنفسها ، لأنها ليست الا نوعا من الوحي أو الالهام .

(٢) une révélation .

ففي غينيا الجديدة ، اذا أصيب الشخص بجرح من رمح قذف به أحد أصدقائه أثناء صيده ، فانهم

ولعل كل ذلك يرجع الى سبب بسيط جدا ، ترتكز عليه الحياة العقلية البدائية برمتها ، وهو أن عناصر الحياة والموت والنجاح والفشل ، وبذور الصحة والمرض ، انما تتوقف جميعها في نهاية الأمر على القوى الخفية Puissances mystiques .

العقلية البدائية

لقد ذهب « ثورنفالد Thurnwald » وهو عالم ألماني يعتبر من المصادر الهامة التي استند اليها « ليفي بريل » في معالجته لفكرة السببية والغيبيات عند العقلية البدائية- يقول « ثورنفالد » ان البدائي تنقصه على العموم « رابطة السببية العميقة La liaison Causale Profonde » (١) ويرى « ليفي بريل » أن السبب في ذلك ، يرجع الى وجود حالة من الأمن العقلي intellectuelle ، أو الطمأنينة التي يستشعر عقلنا المتحضر .

فاذا ما واجهتنا ظاهرة غريبة ، ظهرت فجأة ، دون معرفة سابقة بأسبابها ، فان ذلك لا يغير من اقتناعنا بأن جهلنا بأسباب تلك الظاهرة هو أمر مؤقت Provisoire ، وبأننا سنكتشف أو نتعرف على تلك الأسباب ان آجلا أو عاجلا .

هذا هو حال العقل المتحضر ، أما العقلية البدائية فلا تؤمن بوجود الأسباب الطبيعية Causes naturelles أو « العلل الثانية Causes secondes » حيث تؤمن فقط بوجود « قوى Forces » أو « نفوس Ames » أو « أرواح esprits » ، وهذه هي المصادر الوحيدة التي تفسر الأحداث والوقائع



حيث ان العقل البدائي لا يخضع الا لقانون واحد،  
ذلك هو قانون المشاركة  
. la loi de la participation

ويقضى هذا القانون بأن تنشأ علاقة بين الساحر  
والحيوان ، ومن شأن تلك العلاقة أن يصبح  
الساحر نفسه هو الحيوان دون أن يمتزج به . وإذا  
ما أردنا أن نطبق هنا « قانون التناقض  
Principe de Contradiction ، كان  
لا بد لنا من اختيار أحد أمرين لا ثالث لهما : فاما أن  
يصير الساحر والحيوان شيئا واحدا ، واما أن  
يظلا كائنين متميزين ، ولكن العقلية البدائية  
تؤكد وجود الأمرين معا في آن واحد ، فليست  
فكرة « الرجل النمر L'homme-tigre  
أو الرجل الذئب ، بعيدة عن خيالنا وتصوراتنا .  
حيث يذكر الأهالي أن « البالوجي Balogi  
أى السحرة ، فى وسعهم أن يحولوا الميت الى  
أفعى أو تمساح . (٢)

وغالبا ما ينتمى هذا التحويل الى عالم  
التماسيح ، ولذلك يحتل التمساح من نفس  
الأهالى مكانة التقديس والهيبة ، دون أن يكون  
« الها » أو « روحا » . ويفسر « ليقي بريل »  
موقف الفكر البدائي من واقع الأشياء والكائنات،  
فيرى أن العقلية البدائية ، تتلقى الأشياء لمفاجئة  
inattendu ، أو للاحداث غير  
المتوقعة ، تتلقاها جميعا بالانفعال  
l'émotion ،  
أكثر من الدهشة Surprise ،

حيث كثيرا ما لاحظ الباحثون أن البدائي الذى  
لا يدهش اطلاقا ، هو فى نفس الوقت سريع القبول  
للانفعال ، بمعنى أن البدائي يفعل أكثر مما يدهش

سألونه عن اسم الشخص الذى سحره ، حيث ان  
« البايو Papous » لا يؤمنون  
بوجود الحادث العارض . ولو أدلى هذا الجريح  
باسم الساحر ، لظل الجاني قاذف الرمح سليما  
معافى ، لأنهم يعتبرونه فى هذه الحالة مجرد «آلة»  
أو « أداة » فى يد الساحر ، وأن مسئوليته لا تزيد  
عن مسئولية الرمح نفسه . كما ، أنهم يعتقدون  
فى نفس الوقت أن تمزق الأنسجة الناجم عن طعنة  
الرمح ، لا يقضى على الجريح ، ولا يؤدى الى  
الموت ، بل يرون فقط أن السحر هو الذى يقضى  
عليه . بمعنى أن الجرح وحده لا يؤدى الى  
الموت .

وبذلك يكون السحر والسحرة هما مصدر  
الأحداث فى المجتمع ، حتى الشجرة اذا سقطت ،  
اعتقد الأهالى أن أحد السحرة هو الذى أسقطها ،  
حتى ولو كانت شجرة قديمة متحورة آيلة للسقوط،  
فتسقطها الرياح . وهذا هو مدى الايمان بالسحر  
والسحرة ، الى الدرجة التى يعتقد فيها بعض سكان  
المناطق التى تكثر فيها التماسيح ، أن السحرة  
يتحولون أحيانا الى تماسيح ، أو يدخلون فى باطنها  
ليوجهونها . وبهذا يستطيعون القضاء على ضحيتهم  
التي تلتهمها التماسيح . كما أن التمساح الذى  
يرتكب فعلا خفيا حين يبتلع أحد الأشخاص ،  
لا يمكن أن يكون حيوانا كسائر الحيوانات ، ولكن  
لا بد وأن يكون « أداة » لساحر معين بالذات ، أو  
أن يكون « هو هذا الساحر نفسه » . (١)

وإذا ما أردنا أن نحدد العلاقة التى يتصورها  
الأهالى بين الساحر والحيوان ، اصطدنا بصعوبة  
لا يمكن التغلب عليها بسهولة ، وذلك لأن تفكيرهم  
لا يستند الى نفس الأسس التى يستند اليها تفكيرنا

(2) Ibid : P. 42.

(3) Ibid : P. 45.

(1) Ibid : P. 38.

## فكرة الموت عند البدائي

— وجملته القول — اذا كان البدائي لا ينشغل مطلقا بأسباب الموت الطبيعية ، فمرجع ذلك الى أنه يعرف السبب مقدما ، وما دام البدائي يعرف مقدما لماذا حدث الموت ، فلا يعنيه أن يعرف كيف حدث ، فنحن هنا أمام حالة من القبلية ، ليس للتجربة عليها من سلطان .

( ص ٢١ من كتاب « العقلية البدائية » باريس ١٩٤٧ ) .

## في العقلية الغيبية

— عند هذه العقلية البدائية التي لا تشغل الا بالارتباطات الغيبية ، لا ترى ما نسميه « سببا » أو « علة » الا على أنه « مناسبة » ، أو بقول أدق لاتراه الا « أداة » تستخدمها القوى الغيبية .

( ص ٢٠ من كتاب « العقلية البدائية » باريس ١٩٤٧ ) .

— لا يعتبر أهل الكونفو الأصلليون أن المرض والموت من الأحداث الطبيعية ، ولا يرجعونها الى أسبابها اطلاقا ، بل الى فعل السحرة دون سواهم . ولو نجم الموت عن الحرب أو العرق أو انقضااض صاعقة أو سقطة من شجرة عالية ، أو اعتداء حيوان ضار فانهم يعزونه الى أثر السحر .

وهم يعتقدون هذا الاعتقاد في اصرار عجيب ، واغفال مطلق عن المنطق ، فعندهم أن الانسان لا يموت الا اذا وقع ضحية لسحر ساحر ، ولذلك يعتبرون هذا الساحر هو الجاني حقيقة .

— فلا يعتقد الأهالي في سيراليون ولا يؤمنون بالموت الطبيعي أو العارض ، وانما يرجعونهما الى أسباب فوق طبيعية . اذ أن المرض وافتراس الأسد

وطعنة الرمح ( أو انقضااض الصاعقة ) ليست أسبابا للموت ، ولكنها مجرد آلات في يد القوة الخفية التي سببت هذا الموت ، والتي كان في امكانها أن تختار آلات أخرى للوصول الى غايتها .

— وعلى هذا الأساس يمكننا أن نقول ان البدائيين يدخلون كل أنواع الموت المندرجة في باب الموت العرضي ، حتى الموت بالمرض ، اذ أن البدائيين ينفون تماما وجود الموت العارض .

ذلك لأن الحادث العارض بمعناه الحقيقي ، لا وجود له في نظر العقلية البدائية ، أما ما يسمى بالحادث العارض عند الاوربيين ، فليس الا مظهرا لاحدى القوى الغيبية قد يصيب الفرد والهيئة الاجتماعية على السواء .

— فالعقلية البدائية لا تؤمن بما يسمى بالمصادفة .. ولا يعنى ذلك أنها عقلية تؤمن بجبرية الظواهر الصارمة ، بل انها على العكس من ذلك ، لا تعرف أية فكرة عن هذه الجبرية ، فلا تهتم بالارتباطات السببية ، وتعزو كل حادثة تصادفها الى أصلها الغيبى .

— ولما كان البدائي يشعر تماما أن القوى الخفية هى ماثلة أمامه دائما ، فانه يرى في كل ما يقع في مجاله قصدا وتدييرا . على حين أن الاوروبى في ذلك قد لا يراه الا أمرا عشوائيا خالصا .

— ذلك لأن البدائي ، لا يحتاج الى تفسير الحادثة ، حيث ان الحادثة هى التي تفسر نفسها بنفسها ، لأنها ليست عنده الا نوعا من الوحي .

— وكثيرا ما يطلب البدائي من هذه الحادثة أن تفسر له شيئا آخر غيرها ، تفسيرا يتفق مع فهمه البدائي لمفهوم التفسير . ومع ذلك فقد يضطر ثانية

الى تفسيرها هي نفسها ، اذا لم يكن لديه ما يزوده  
بالنفسير .

صفحات ٢٦ ، ٢٧ من كتاب « العقلية البدائية »  
باريس ١٩٤٧

### فكرة المصادفة والحادث العارض

— عند هذه العقلية ، ان افتراض الحادث  
العارض ، هو آخر ما يخطر لها ، بل انها لا تستطيع  
اطلاقا مجرد تصوره ، وذلك لأن أصحابها يؤمنون  
ايما قاطعا ، أن ما نسميه « بالحادث العارض » ،  
انما يرجع الى أسبابه الغيبية ، وأن من مصلحتهم  
أن يحاولوا أن يكشفوا عن هذا السبب الغيبى ،  
اذا لم ينكشف فورا من تلقاء نفسه .

( ص ٣٣ من كتاب « العقلية البدائية » باريس  
١٩٤٧ ) .

### العقلية البدائية :

— ان العقلية البدائية هي ضعيفة التصور  
مسرقة فى الغيبية ، لأنها عقلية مرهفة الحساسية ،

ولكنها نادرا ما تحلل أو تجرد . ولذلك — فهي  
تكون أحكامها عن القيمة ، كى تعبر بها عن حبها  
وبغضها ، عن عواطفها ومشاعرها بوجه عام ،  
فاضطرت الى تصور موضوع هذه الأحكام بصورة  
جزئية مشخصة .

— وبكلمات أخرى — يمكننا أن نقول انها —  
لا تكون معان تجريدية عامة ، كما لا تصوغ أحكاما  
عامة عن القيمة ، تستند الى مقارنة وضعية  
للموضوعات المختلفة الظاهر . اذ أن الأحكام التى  
من هذا النوع ، تتضمن عمليات عقلية تبدو  
بالنسبة اليها فى غاية البساطة لأننا قد ألفناها ، ولكن  
العقلية البدائية لا تستسيغها لأنها لم تعتد عليها .  
ولذلك تتجنبها بغيريتها الفطرية اذا جاز لنا هذا  
القول .

( ص ٤٦٨ من كتاب « العقلية البدائية » باريس  
١٩٤٧ ) .

وينبغي أن لا يفوتنا أن « الدهشة » هي المنبع الأول للفكر والمعرفة على ما يقول أفلاطون .

واستنادا الى ذلك الفهم — فإن العقلية البدائية تشتمل على مجموعة من التصورات الجمعية ، تلك التصورات الغيبية التي تتعلق بعالم السحر وأرواح الموتى من الأسلاف ، وهذا المجموع الهائل من التصورات الجمعية ، يعتبر عند البدائيين معينا لا ينضب من الانفعالات ، والانفعال عند البدائي هو المصدر الوحيد للنشاط الفكرى والعقلى عند البدائي .

ومعنى ذلك أن الخاصية الأولى للعقلية البدائية هي غلبة الانفعال على البدائي ، وبعده عن الدهشة والتفكير والتأمل . كما أنها ليست عقلية غيبية فحسب ، وليست مجرد عقلية سابقة على التفكير المنطقي ، بل ان الخاصية الجوهرية الثالثة ، هي أن تلك العقلية لا تؤمن بالسببية كما يتصورها العقل المتحضر ، حيث أن فكرة السببية كما يتصورها العقل البدائي لها طابعها الذى يختلف تماما عن الطابع الذى نألفه ، على الرغم من أهمية فكرة السببية فى حياتنا الفكرية — فالسببية — بلغة الفلاسفة — هي القنطرة الوحيدة التى تنقلنا من العقل الى الوجود ، والتى تربطنا بالعالم ، لأنها الرابطة التى تربط بها الظواهر ربطا زمنيا محكما . حيث ان المجموع الكلى لظواهر العالم برمته ، هذه الظواهر بمجموعها ، انما هي فى تفاعل متبادل عام une action réciproque universelle على

ما يقول الفيلسوف الألمانى كانط . (١)

ويرى « ليثى بريل » — أنه مهما تعقدت شبكة العلية والمعلولية فى ظواهر العالم ، فان هذه الظواهر ، انما تبدو منتظمة وبصورة دائمة فى سلسلة سببية صارمة .

وهذا التسلسل العلى هو الذى يشيد لنا نظام العالم ، وهو الركيزة الأساسية التى اليها تستند التجربة .

تلك هي العلية عند الانسان العادى أما العلية البدائية فتفسر الأشياء والأحداث بالرجوع الى قوى خفية أو غيبية كالسحرة ، أو أرواح الموتى من الأسلاف . وليس من شك من أن البدائي انما يتبع نفس الطريقة التى يتبعها المتحضر ، عند استعماله لقانون السببية . ولكن الفارق بينهما يتمثل فى وجود كلا من العلة والمعلول فى زمان واحد ومكان واحد ، بالنسبة للعقلية المنطقية المتحضرة ، بينما تؤمن العقلية اللامنتطقية البدائية ، بأن عالم العلل انما ينتمى الى عالم آخر ، هو عالم الغيبيات والكائنات الخفية ، بمعنى أن العلل والمعلولات لا تقوم — عند البدائي — فى نفس الزمان وفى نفس المكان . ولكن عالم العلل والمعلولات ينتمى عنده الى عالم خفى مسحور ، هو عالم « فوق مكانى extra-spatiale » ، كما أنه أيضا فى نفس الوقت هو عالم فوق زمانى extra-temporelle . بمعنى أن عالم العلل البدائية ، هو عالم غير قابل للرؤية ولا للحس بوسائل الادراك العادية ، لأنه عالم غير منظور .

ولعل السبب فى أن العقلية البدائية ، لا تبالى بالبحث عن العلل الطبيعية أو العلل الثانية ، لأنها درجت على طابع من السببية يحجب عنها شبكة هذه الأسباب أو العلل ، حيث ان العلل الغيبية التى تنزع نحوها العقلية البدائية ، انما هي علل « لامكانية » و « لازمانية » .

ومعنى ذلك أن هناك روابط غيبية liaisons mystiques من شأنها أن تكون فى الغالب روابط مسبقة Préliaisons ، لأنها روابط

(1) Ibid, P. 85.

قبلية ، تربط بصورة مباشرة بين « القوة الخفية la force occulte » وبين النتيجة l'effet produit مهما تباعدت (١) .

وليس للزمان والمكان في العقل البدائي نفس المعانى التى يحملها العقل المتحضر ، حيث اننا لانستطيع أن نتفهم فكرة الزمان ، اذا لم تتصور تسلسل الظواهر بعضها بعضا وارتباطها برابطة السببية ، واستنادا الى تصورنا الى علية تسلسل الظواهر ، فاننا نقسم الزمن تقسيما كيميا ، ويبدو لنا الزمان وكأنه « كم متجانس un quantum homogène » ، على اعتبار أنه قابل للتقسيم الى أجزاء متشابهة ، ومن هنا تبدو الظواهر والأحداث وكأنها متراسة فى نسج الزمان ، كما تبدو العلل والمعلولات وكأنها مرتبة ترتيبا زمنيا ، ولكن العقلية البدائية لايمكنها اطلاقا أن تتصور هذا الفهم الفلسفى العميق لفكرة الزمان .

فالبدائى - كما يقول « هوبير Hubert » يشعر بالزمان تبعا لصفاته العامة، ولكنه لا يتصوره أو يفكر فيه طبقا للخصائص الموضوعية للزمان . فقد يميز البدائيون أحيانا بين نوعين من الزمان طبقا لفكرة السعادة والتعاسة، ومن ثم يكون الزمان البدائى هو الزمان السعيد والسزمان النحس أو التعس . بمعنى أن العقل البدائى يتعامل مع مقولة الزمان بطريقة تبعدها تماما عن معناها ومغزاها ، فالبدائى لا يكاد يميز بين الماضى والحاضر والمستقبل . (٢)

وجملة القول - ان العقلية البدائية ، لايمكنها أن تستوعب ذلك الاطار الثلاثى العقلى المؤلف من الزمان والمكان والعلية ، وذلك لأنها عقلية غيبية

بحته كما أنها سابقة على المنطق ، وتتمايز عن عقلنا المتحضر . وليست التجربة وحدها عند البدائيين هى التى تتمايز أو لا تنطبق على تجاربنا ، بل ان « les cadres de l'expérience » عند البدائيين ، انما تتمايز تماما عن اطرار التجربة عند العقلية المتحضرة .

ويذهب ليقى بريل الى أننا كنا فى الماضى نميل الى الاعتقاد ، بأن الزمان والمكان والعلية ، انما هى « مقولات Catégories » أساسية بمعنى أنها من الاطرار أو العناصر التى يتألف منها العقل الخالص على ما يقول كانط . فلقد كانت المقولات فطرية innés عند الفلاسفة العقلين . ولكن « ليقى بريل » لم يكن مجرد عالم اجتماع ، وانما كان فيلسوفا فى نفس الوقت ، لأنه يؤيد المذهب التجريبي فى الفلسفة ، ويعتقد أن اطرار التجربة ، انما تتكون لدينا شيئا فشيئا ، ثم تقوى وتثبت وتشتد ، كلما تعمقت التجربة ، وبمرور الزمان يتوصل الفكر الى هضم هذه الاطرار داخل العقل ، ومن هنا تصدر « اطرار التجربة » عن التجربة ذاتها ، لا عن العقل على ما يذهب العقليون ، هؤلاء الذين ذهبوا الى أن اطرار الزمان والمكان والعلية انما هى فطرية فى العقل ، وهى اطرار أصيلة صدرت عن جبلة العقل .

ولكن - لقد حاول علماء الاجتماع أن يهدموا هذا الاطار الفلسفى الخالد المؤلف من الزمان والمكان والعلية ، فذهب « ليقى بريل » الى أن دراسة « التصورات الجمعية » فى المجتمعات البدائية ، لا تؤيد هذا الغرض الفلسفى ، بل تؤكد فقط على أن مثل تلك الأفكار التى كان يظن أنها فطرية ، انما هى تجريبية ، لأنها صدرت عن

(1) Ibid : PP. 88-89.

(2) Ibid : P. 90.

التجربة ، وتألفت داخل اطارات اجتماعية Cadres Sociaux . ومن ثم تصدر الأصول الأولية للزمان والمكان والعلية عن بنية المجتمع ، وتنشق من خلال التصورات الجمعية السائدة في البناء الاجتماعي .

### الأحلام والسحر :

ان التداخل الوثيق الذى يربط بين العالم المنظور وغير المنظور ، لا يتجلى فى الفكر البدائى الا فى الأحلام Les Rêves ، حيث ينتقل المرء انتقالا حرا من الحقائق الحسية المنظورة ، الى القوى الغيبية غير المنظورة .

ويتصور البدائيون الحلم على أنه خروج للروح حين تترك الجسم ، وتنتقل الى عالم غيبى آخر حيث تلتقى وتشاهد وتحادث أرواحا أخرى . وحين يستيقظ الانسان - فى زعم البدائى - تعود اليه روحه ، وتختل مكانها فى الجسم .

وللأحلام وظيفتها الادراكية عند البدائى ، حيث ان الاحلام ، هى المنبع الذى يستمد منه البدائى الكثير من الأخبار سواء أكانت مفرحة سارة أم محزنة مشؤمة . والأحلام هى مصدر التنبؤات عن المستقبل ، حيث تنقل الى البدائى المعلومات والأخبار التى لا تقل قيمتها عن المدركات التى يحصل عليها البدائى فى عالم اليقظة والملاحظة . حيث يعتقد البدائى اعتقادا راسخا بتلك الرابطة القائمة بين الأحلام من جهة ، وبين عالم القوى غير المنظورة من جهة أخرى ، وبذلك يرتبط البدائى مباشرة عن طريق الحلم بالعالم غير المنظور . (1)

ويربط البدائى بين حالة النوم وحالة الموت ، على اعتبار أن الروح تغادر الجسم فى حالتى

(1) Ibid : PP. 96-97.

النوم والموت معا . كما أن الفعل « يحلم » يعنى عندهم أن يكون الانسان فى حالة وسط بين الحياة والموت ، أو على حد تعبير « ليشى بريل » هى حالة «demi mort» ففى حالة الحلم تذهب الروح الى عالم « الرينجا Reinga » وهو « العالم الغيبى غير المنظور » ، حيث تتحرر الروح من عالمنا الواقعى ، فتشاهد سائر الأرواح الأخرى وتحادثها ، وتتلقى عنها الأخبار السعيدة أو الأنباء المحزنة . ولذلك اذا قال أحدهم انه كان فى « الرينجا » فانه يعنى أنه رأى حلما .

وللأحلام أهميتها الكبرى فى حياة البدائى ، الى الدرجة التى معها يكون الشخص مسئولا مسئولية تامة عن أفعاله التى يقوم بها فى أحلامه . ومن أشهر الدراسات التى تكشف عن قيمة الأحلام وأثرها فى حياة البدائين ، هى دراسات اليسوعيين المسماة باسم « Relations des jésuites » فى فرنسا الجديدة . ففى هذه الدراسة المشهورة وصف اليسوعيون أثر الأحلام وسلطانها على العقل البدائى ، الى الدرجة التى تكون فيها الأحلام أحيانا عقبة كأداء فى نجاح عملية التبشير ، وقد تكون أحيانا أخرى أكبر عون للمبشرين على نجاح مهمتهم . حيث ان البدائى يخضع للأحلام ويطيعها ، تماما كخضوعه وطاقته للاله .

حيث ان الحلم هو « العراف » الذى تستشير به كل هذه الشعوب ، وهو « النبى » الذى يتنبأ لهم بالأشياء المستقبلية ، وهو « اله الطب L'Esculpe » الذى يشفيهم من الأمراض والعلل . ومعنى ذلك أن للأحلام سلطانها المطلق

فى حياة البدائى ، فالحلم هو السيد المطاع الذى يفرض على البدائى سلوكه فى صيده أو حربه .. وهو الاله الرئيسى الأوحى لقبائل Hurons . (١)

ولا يؤمن البدائى بالأحلام فحسب ، بل يؤمن أيضا بالتطيرات Les Présages

تلك الفئول التى تعتبر عند البدائى ، إحدى وسائل الكشف أو الإلهام révélation التى تحدث تلقائيا ، ويفسرها البدائى فورا عن طريق الروابط المسبقة القائمة فى تصورات الجمعية . ولهذه الفئول والتطيرات ، مظاهر شتى ، كأن يسمعوها طائرا يصيح ، أو يروا حيوانا يعبر الطريق ، فيدرك البدائى ازاء تلك المشاهدات ، بعض الدلالات السعيدة أو المشئومة . (٢)

ومن أشهر الفئول السيئة ظهور حرباء أو أفعى أو بومة ، وهناك من الأحداث ما يمكن اعتباره من الفئول السيئة ، كأن يولد المولود فى « اللواشبا Waschambaa » وهى قبائل تششام بميلاد المولود وقد خرجت قدماء قبل رأسه عند نزوله ، فانهم يقتلونه لفأله السىء ، وكذلك اذا وجدوا عنزة تلد توأمين فى أول ولادة لها ، فهذا من أثر السحر ، ولا بد من قتل العنزة وولديها . وفى قبائل « الكيكويو kikuyu »

بافريقية الشرقية ، اذا كانت هناك بقرة ترعى ولقت ذيلها حول شجرة ، فانهم يعتبرون هذه البقرة تاهو Thahu تأتى بالكوارث ، ولذلك وجب قتلها فى الحال ، فيضحي بها صاحبها ، ويوزع لحمها ، ويعطى سلسلتها الفقرية لكبار السن فى القرية ، كما ويعطى رقبتها للشبان المحاربين . (٣)

وعند « الهوتنتوت Hottentot »

اذا صاحت الدجاجة صياح الديكة ، قتلت ، أو طوردت حتى تموت لأنها مشئومة ، والا كانت النتيجة التى لا مهرب منها ، هى موت صاحبها . كما يتخلص البدائيون أيضا من المواليد الشواذ الخلقة والمشوهين أو من يولد وله أسنان ، أو اذا نبتت أسنان الطفل العليا قبل السفلى ، كل هذه الأحوال تعتبر شؤما تسبب الكوارث على أسرة الطفل ، بل على القرية بأسرها .

والمصدر الثالث الذى يعتمد عليه البدائى بعد الفئول والأحلام ، هو العرافة divination والتحكيم الإلهى الغيبى L'Ordalie واذا ما درسنا طرق العرافة التى يستخدمها « البابو Papous » فى غينيا الجديدة الألمانية فيقول أحد العلماء ان الفرد فى قبيلة « الكاي Le Kai » يجب أن يستشير الطالع قبل أن يدخل فى أرض العدو ، كما أنه اذا حاول أن يعرف ما اذا كان مهتدا بخطر مفاجئ ، فانه يأخذ جذر نبات معين ويتلو عليه تعويذة ، ثم يحاول أن يثنيه ، فاذا انكسر ، لم يكن هناك شر أو خطر ، وان بقى سليما كان عليه أن يحتاط من قدوم الشرور والأخطار . (٤)

وقد يستخدم البدائيون العرافة فى الكشف عن الجرائم وبخاصة السرقة ، فانهم يحاولون البحث عن السارق ومعرفة اسمه ، حيث يذهب المجنى عليه الى الساحر حتى يحدد له الجانى عن طريق قراءة التعاويذ . فيأخذ الساحر فأسا ويضرب بها نباتا متسلقا معينا ، وكلما هوى بالفأس نطق الساحر بأحد الأسماء ، فاذا أصابت الفأس النبات كان الاسم لشخص برىء ، واذا أخطأته

(1) Ibid : P. 124.

(2) Ibid : P. 159.

(3) Ibid : P. 215.

(4) Ibid : P. 250.

كان صاحب الاسم الذى ذكر فى هذه اللحظة  
بعينها هو الجانى .

هذا عن العرافة ، أما عن التحكيم الالهى الغيبى  
L'Ordalie فهو عملية سحرية

يقصد une procédé magique

بها اظهار صدق الاتهام أو كذبه بطريقة لا تقبل  
الشك (١) . وقد يستخدم التحكيم كوسيلة  
لاكتشاف ومعرفة المستقبل وهنا يصبح للتحكيم  
وسيلة من وسائل العرافة ، ويسمى « ليقى بريل »  
divination par l'ordalie العرافة بواسطة التحكيم

ففى بعض القبائل البدائية ، يستخدم الأهالى  
التحكيم بالماء المغلى لمعرفة النتيجة التى سينتهى  
اليها أحد المرضى . حيث يضع المططب

medicine-man فوق النار قدرا مملوءا

بالماء المخلوط ببعض العقاقير . وحينما يغلى الماء  
يضع فيه يده ، فإذا خرجت سليمة يشفى المريض ،  
ثم يتلو تعاويذه من أجل الشفاء ، وإذا خرجت  
مصابة من أثر الماء المغلى ، كان ذلك فألا بموت  
المريض ومن هنا يكون التحكيم وسيلة لكشف  
الغيب وفض ستار المحجوب والمجهول ومن ثم  
يصبح التحكيم وسيلة غيبية مماثلة  
للعرافة ، حيث يستخدم فى قضايا السحر  
وتفسير الكوارث والأحداث ، نظرا لايان البدائى  
بالقوى الغيبية والتأثيرات الخفية غير المرئية .

ويقسم « ليقى بريل » تلك القوى الى ثلاثة

أقسام ، هى « أرواح الموتى »

les esprits des Morts أما القسم الثانى - فهو

« الأرواح عسوما les esprits » ، وهى

تلك القوى التى تدب فى العالم وهى مصدر  
الحركة فى الأشياء الطبيعية ، ومبعث الحياة

للانسان والحيوان ، أما القسم الثالث والأخير -  
les charmes فهو الطلاس

والتعاويذ les sortilèges التى هى  
من فعل السحرة Sorciers . (٢)

ففى قبائل « البابو Papoue »  
فى غينيا الجديدة الألمانية ، نجد أن السحر يلعب  
عندهم دورا هاما ، فإذا لم يسقط المطر ، أو ساءت  
الحاصلات الزراعية ، وإذا لم تثمر الأشجار  
أو ماتت الخنازير ، وإذا حدث الزلزال أو طفى  
البحر ، فإن هناك وراء كل هذه الظاهرات أسبابا  
ليست طبيعية تكفى لتفسيرها ، ولكنها أسباب  
سحرية وغيبية ، بمعنى أنه لا بد وأن يكون هناك  
سحر له دوره من وراء ستار .

والسحر عند البدائى يقف دائما بالمرصاد ،  
حتى يحدث الشرور والآثام ، بمعنى أن السحر  
هو حالة « امكان دائم Possibilité Permanente »  
لاحسوات الشر maléfice (٣) وهذا  
ما يفسر لنا قلق البدائى مما يحيط به ، وخوفه  
الدائم المستمر الذى يصل الى حد الضجر من  
السحر والسحرة ، فالبدائى يحاول دائما الكشف  
عن السحرة ، لا من أجل معاقبتهم على ما فعلوه  
فى الماضى ، ولكن بقصد القضاء على الشرور  
المستقبلية التى سينزلها الساحر . ولذلك ليس هناك  
من سبيل ، الا قتل الساحر الشرير ، والقائه  
فى اليم أو حرقه بالنار ، حتى تنعدم روح الشر  
الكامنة فى شخصية الساحر .

ويعتقد البدائى - ان عالمه الواقعى الاجتماعى -  
ينقسم الى قسمين « عالم الاحياء les ta-maur »  
و « عالم الأموات les ta-mat » . ففى ميلانيزيا حين

(2) Ibid : P. 215.

(3) Ibid : P. 51.

(1) Ibid : P. 159.



ويقول « مانسفيلد Mansfeld »

فى هذا الصدد - انه اذا توفي أحد رؤساء القبائل ، فان ذلك يؤدى الى نشوب حرب بين بعض القصى وبعضها الآخر . فاذا مات مثلاً رئيس من قرية (أ) فانه ينبغي أن يذهب رجلان أو ثلاثة الى القرية (ب) ، فيختبئون فى كمين ويقتلون رجلين من رجالها ثم يعودون برأسيهما ، وكان يترتب على ذلك بالطبع أن تتأثر القرية (ب) لنفسها (٤) . ولذلك أسهب « جينود Junod » فى شرح طبيعة الصلاة الدائمة التى توحد بين القبيلة وأسلافها les ancêtres (٥) .

هذه هى الأفكار الرئيسية التى أثارها « ليشى بريل » فى كتابه « العقلية البدائية » ، والتى تدور كلها حول الموت والعلية والأحلام والعرافة والتحكيم الإلهى الغيبى .

نماذج مختارة من النصوص :  
فى القوى الغيبية .

- ان البدائى سواء أكان إفريقيا أم غير إفريقيا لا يهتم إطلاقاً بالبحث عن الارتباطات السببية ، إلا اذا كانت واضحة جلية بذاتها ، فيلجأ فوراً الى إحدى القوى الغيبية .

- وفى نفس الوقت يفسر الرحالة والمبشرون هذه الحالة فيرون أن البدائى يسارع بالالتجاء الى القوى الغيبية ، لأنه يهمل البحث عن الأسباب الطبيعية .

ص ١٩ من كتاب « العقلية البدائية » طبعة مجددة باريس ١٩٤٧ .

يرى الميلانيزيون أحد البيض ، يظنون أنه ta-mate أى من الأرواح التى ماتت ورجعت الى النور ، واذا سألهم البيض عن يكونون ، أجاب الأهالى بأنهم « بشر أحياء ta-maur » وليسوا أرواحا esprits أو أشباحا ghosts وهكذا يفسرون البدائىون ظهور البيض بأنهم أرواح بيضاء عادت الى الحياة والى النور (١) ولا يؤدى الموت عند البدائى الى انفصال الميت عن مجتمعه وذويه ، بل انه على العكس يبقى مجاوراً لجسده ، ويهتم الأهل بالعناية بدفن الميت والحرص على رفاة ، وذلك لشعورهم بحضوره بينهم ، وبالخطر الذى سوف يهددهم لو لم يعامل الميت طبقاً للتقاليد والعادات المرفوعة . كما تقتضى التقاليد - على ما يقول « ايلمان Eylmann » أن تنتقم القبيلة بأسرها ، اذا اغتيل أحد أفرادها ، ولو باجراء بعض الاجراءات المظهرية حتى تهدأ روح القتيل . فليس من شك فى أن روح الفقيد سوف ترضى اذا ما قام الأهل بالانتقام لاغتياله ، ولو من حيث المظهر على الأقل . ومن هنا يكون هذا الاجراء المظهرى للانتقام ، ليس الا ضرباً من الطقوس cérémonie ومن هنا جاءت ضرورة زيارة قبر الفقيد حتى ترضى أو تهدأ روحه . (٢)

وحين يقتل أحد الأفراد فى « Bornéo » فانهم يثأرون ويطالبون بدمه ، وهذا ما يفسر ظاهرة « head-Hunting » صيد الرؤوس البشرية تلك الظاهرة المنتشرة بوضوح فى « برنيو » فاذا مات أحدهم لابد من احضار رأس أو عدة رؤوس بشرية ، والا أصبح هدفاً للانتقام روح الفقيد ، وقد يشمل الانتقام كل أفراد القبيلة برمتها . (٣)

(4) P. 70.

(5) Ibid : P. 82.

(1) Ibid : P. 58.

(2) Ibid : P. 65.

(3) Ibid : P. 69.

## فكرة الموت عند البدائي

وطعنة الرمح (أو انقضااض الصاعقة) ليست أسبابا للموت ، ولكنها مجرد آلات فى يد القوة الخفية التى سببت هذا الموت ، والتى كان فى امكانها أن تختار آلات أخرى للوصول الى غايتها .

— وعلى هذا الأساس يمكننا أن نقول ان البدائيين يدخلون كل أنواع الموت المندرجة فى باب الموت العرضى ، حتى الموت بالمرض ، اذ أن البدائيين ينفون تماما وجود الموت العارض .

ذلك لأن الحادث العارض بمعناه الحقيقى ، لا وجود له فى نظر العقلية البدائية ، أما ما يسمى بالحادث العارض عند الاوربيين ، فليس الا مظهرا لاحدى القوى الغيبية قد يصيب الفرد والهيئة الاجتماعية على السواء .

— فالعقلية البدائية لا تؤمن بما يسمى بالمصادفة .. ولا يعنى ذلك أنها عقلية تؤمن بجبرية الظواهر الصارمة ، بل انها على العكس من ذلك ، لا تعرف أية فكرة عن هذه الجبرية ، فلا تهتم بالارتباطات السببية ، وتعزو كل حادثة تصادفها الى أصلها الغيبى .

— ولما كان البدائي يشعر تماما أن القوى الخفية هى ماثلة أمامه دائما ، فانه يرى فى كل ما يقع فى مجاله قصدا وتدييرا . على حين أن الاوروبى فى ذلك قد لا يراه الا أمرا عشوائيا خالصا .

— ذلك لأن البدائي ، لا يحتاج الى تفسير الحادثة ، حيث ان الحادثة هى التى تفسر نفسها بنفسها ، لأنها ليست عنده الا نوعا من الوحي .

— وكثيرا ما يطلب البدائي من هذه الحادثة أن تفسر له شيئا آخر غيرها ، تفسيرا يتفق مع فهمه البدائي لمفهوم التفسير . ومع ذلك فقد يضطر ثانية

— وجملة القول — اذا كان البدائي لا يشغل مطلقا بأسباب الموت الطبيعية ، فمرجع ذلك الى أنه يعرف السبب مقدما ، وما دام البدائي يعرف مقدما لماذا حدث الموت ، فلا يعنيه أن يعرف كيف حدث ، فنحن هنا أمام حالة من القبلية ، ليس للتجربة عليها من سلطان .

( ص ٢١ من كتاب « العقلية البدائية » باريس ١٩٤٧ ) .

## فى العقلية الغيبية

— عند هذه العقلية البدائية التى لا تشغل الا بالارتباطات الغيبية ، لا ترى ما نسميه « سببا » أو « علة » الا على أنه « مناسبة » ، أو بقول أدق لاتراه الا « أداة » تستخدمها القوى الغيبية .

( ص ٢٠ من كتاب « العقلية البدائية » باريس ١٩٤٧ ) .

— لايعتبر أهل الكونفو الأصليون أن المرض والموت من الأحداث الطبيعية ، ولا يرجعونها الى أسبابها اطلاقا ، بل الى فعل السحرة دون سواهم . ولو نجم الموت عن الحرب أو الفرق أو انقضااض صاعقة أو سقطة من شجرة عالية ، أو اعتداء حيوان ضار فانهم يعزونه الى أثر السحر .

وهم يعتقدون هذا الاعتقاد فى اصرار عجيب ، واغفال مطلق عن المنطق ، فعندهم أن الانسان لا يموت الا اذا وقع ضحية لسحر ساحر ، ولذلك يعتبرون هذا الساحر هو الجانى حقيقة .

— فلا يعتقد الأهالى فى سيراليون ولا يؤمنون بالموت الطبيعى أو العارض ، وانما يرجعونهما الى أسباب فوق طبيعية . اذ أن المرض وافتراس الأسد

الى تفسيرها هي نفسها ، اذا لم يكن لديه ما يزوده بالتفسير .

صفحات ٢٦ ، ٢٧ من كتاب « العقلية البدائية »  
باريس ١٩٤٧

فكرة المصادفة والحادث العارض

— عند هذه العقلية ، ان افتراض الحادث العارض ، هو آخر ما يخطر لها ، بل انها لا تستطيع اطلاقا مجرد تصوره ، وذلك لأن أصحابها يؤمنون ايمانا قاطعا ، أن ما نسميه « بالحادث العارض » ، انما يرجع الى أسبابه الغيبية ، وأن من مصلحتهم أن يحاولوا أن يكشفوا عن هذا السبب الغيبى ، اذا لم ينكشف فورا من تلقاء نفسه .

( ص ٣٣ من كتاب « العقلية البدائية » باريس ١٩٤٧ ) .

العقلية البدائية :

— ان العقلية البدائية هي ضعيفة التصور مسرفة فى الغيبية ، لأنها عقلية مرهفة الحساسية ،

ولكنها فادرا ما تحلل أو تجرد . ولذلك — فهي تكون أحكامها عن القيمة ، كى تعبر بها عن حبها وبغضها ، عن عواطفها ومشاعرها بوجه عام ، فاضطرت الى تصور موضوع هذه الأحكام بصورة جزئية مشخصة .

— وبكلمات أخرى — يمكننا أن نقول انها — لا تكون معان تجريدية عامة ، كما لا تصوغ أحكاما عامة عن القيمة ، تستند الى مقارنة وضعية للموضوعات المختلفة الظاهر . اذ أن الأحكام التى من هذا النوع ، تتضمن عمليات عقلية تبدو بالنسبة اليها فى غاية البساطة لأننا قد ألفناها ، ولكن العقلية البدائية لا تستسيغها لأنها لم تعتد عليها . ولذلك تتجنبها بغيريتها الفطرية اذا جاز لنا هذا القول .

( ص ٤٦٨ من كتاب « العقلية البدائية » باريس ١٩٤٧ ) .